فهو يأتى الزوجة ولا يجد تعبيراً لحاله إلا أبيات امرئ القيس قديماً ، فيصفُ منها ما وصف الشاعر الجاهلى ويصمها بما سار على الزمان من فضيحة ذلك الضال الهائم الذى ضيعه أبوه صغيراً ، وافتتح شعرنا بغزل فيه عبث ومجون .

وابنُ عنين يتناول الأختَ والأم حين يهجو رجلا من دمشق فيقول :

ذُو طَرَفَيْن إذا نسبْتهما يَحارُ فى ذاك كلُّ ذى لُبِّ
فالأختُ والأم منْ بنى شَبَقٍ والأبُ والابنُ من بنى كلْبِ

وبذلك تناول الأسرة كلها ، وجعل نسب النساء إلى شبق ، وفى اللفظة لذع كثير ، ومجاهرة بالوصف وتحد للأخلاق . وليس هذا غريباً عنه فى ديوانه منه سطور يندى لها الجبين ، وما نستطيع أن نُبْعد أكثر من هذا وإنما نحيل إلى غير هذا الكتاب . لأننا نريده نظيفاً فى بحث يجرّ إلى غير النظافة عند تصوير هذا اللون . والذهاب مع الشعراء فى أقوالهم إلى حيث يسفون ، فلا ينفع مع شعرهم حذفٌ أو إضمار . ذلك لأنهم قد يعرضون فى هجائهم لشذوذ الرجال مع الرجال أو النساء مع النساء . بُغية الحطّ من قيمة المهجوّ ، وتناول عرضه . ويستطيع الذين يستطيبون الدراسة فى هذا السبيل أن يلوذوا بدواوين بشار وأبى نواس وابن عنين ، أو من جاء بعدهم حين سقطت الأخلاق خلال عصور الانحطاط .

ونحنُ حين عرضنا إلى هذه الناحية أردنا أن نصوّر ظلمَ الشعراء للمرأة ، وهم فى سبيل هجاء الرجل ، أو ظلمهم للنساء وهم يهجمون عليهن لغاية يريدها الشعر والخيالُ . ويأباها الواقع والشرف . ولعلّ ذلك من الأسباب التى بغضت الشعر إلى كثير من الأئمة وصرفتهم عن قرضه ، ونزلت به إلى ساح الكذب والوقيعة . وخلفت لنا فيه صفحات لا تشرّف السامع والقارئ ، ولكننا نظرنا إليها هنا من ناحية فنّ الهجاء الشخصى وتناول العرض بالرسم والوصف ليس غير ، ونبرأ من تبعة ما يقع من وراء ذلك .